مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

العدد الرابع والعشرون

1375 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2007 مسيحي

تصدر عن
كلية الدعوة الإسلامية
طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

ماهيّة العقل عند الحارث المحاسبي وأثرها في فهم مراد الله تعالى

د. محمّد السيّد المليجي
كلّيّة العلوم الشرعيّة ـ جامعة المرقب

أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي هو أحد صوفية الحقائق الذين صححوا باطنهم بالإخلاص والمراقبة لله تعالى. فزين الله ظاهرهم بفهم القرآن واتباع السنة.

ولد بالبصرة في عام غاب عن كثير من كتاب الطبقات[1]، ومن ثم كانت هناك اجتهادات من بعض محققي تراث المحاسبي. تحاول تحديد العام الذي

(1) انظر: السلمي: طبقات الصوفية ـ تحقيق نور الدين شريبة ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ 1406هـ ـ 1984م، ص56 ـ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ـ تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ طبعة 1420هـ ـ 1999م، ط ص472.

ولد فيه فيقول الدكتور عبد الحليم محمود: إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده إذ إن الكتب القديمة التي تحدثت عنه. لم تذكر ذلك. بيد أن الملابسات ترشد إلى أنه ولد على التقريب. في العقد السابع من القرن الثاني الهجري»[2]. أي ما بين (160 ـ 170هـ) وهذا قريب من اجتهاد الدكتور حسين القوتلي الذي حدد العام الذي ولد فيه المحاسبي. وهو (165هـ)[3].

أما وفاته فقد اتفقت الروايات على أنها كانت في بغداد سنة (243هـ)[4].

ولكني لم أجد البراهين القاطعة التي تدعو الدكتور القوتلي إلى تحديد العام الذي ولد فيه المحاسبي. ولذا فالميل إلى اجتهاد الدكتور عبد الحليم محمود أقرب إلى المنهج العلمي الذي يراعي الاحتمالات الواردة التي تشير إلى ازدحام حياة المحاسبي بالتيارات الفكرية المتنوعة. والفرق الكلامية المتعددة. ناهيك عن نشأته العلمية التي ترعرعت على يد الإمام الشافعي (150 ـ 204هـ) في الفقه، ثم نضجت على يد أعلام أهل البصرة في الحديث والتفسير والتصوف والفلسفة والأدب والبلاغة.

ومما أعانه على استيعاب هذه العلوم، صدق إقباله على الله تعالى وعلى طلب العلم ثم الحياة العلمية التي هيأتها له الأقدار، فكان وحيد أبويه ومن أسرة ميسورة كما ساعده قدومه إلى بغداد ـ في سن مبكرة ـ إلى معايشة آراء الفرق الكلامية كالمعتزلة والأشاعرة والفكر الشيعي.. وغيرها من الآراء الأخرى، التي استوقفته كثيراً من الوقت قضاها المحاسبي بين الحيرة والشك[5] ثم اختار

---

(2) الحارث المحاسبي: الرعاية لحقوق الله ـ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ 1990م، المقدمة. ص6.

(3) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ـ تحقيق د/ حسين القوتلي ـ دار الفكر ـ القاهرة ـ ط3 ـ 1403هـ ـ 1982م، ص12.

(4) انظر: السلمي: طبقات الصوفية، ص55 ـ طبقات الشافعية الكبرى جـ 10 ص271.

(5) انظر قصة المحاسبي مع الشك في كتابه «الوصايا» أو «النصائح» تحقيق عبد القادر عطار، عالم الكتب ـ القاهرة ـ عام 1966، المقدمة، ص5، ص6.

من علم ودراية منهج أهل السنة والجماعة، كما مال قلبه إلى طريقة الصوفية بعد ما تحقق من موافقة ارشادهم ووصاياهم لمنهج أئمة الهدى من أهل السنة والجماعة.

فجمع بذلك بين علوم الشريعة والحقيقة حتى صار إماماً لأهل زمانه في الفقه والتصوف والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف فيها»[6].

ولم يكن المحاسبي ذا علم فقط، وإنما كان صاحب سلوك حسن وخلق كريم. فكان ـ رحمه الله تعالى ـ «ناسكاً عابداً، وصوفيا زاهداً، وفقيهاً ومتكلماً، وواعظاً ومحدثاً ورواياً، أوتي فصاحة لسان، وبراعة بيان ونصاحة جنان»[7] ولعل وفرة أدواته البحثية وتعدد ثقافته المعرفية وبروز سماته الشخصية من وراء تميزه عن باقي الصوفية في الوحشة من الناس وطلب العزلة، وحرصه على منازلة أهل الفرق الكلامية والتصدي لآرائهم الجدلية. وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى رميه ببعض التهم التي تحتاج إلى وقفة علمية وموضوعية أيضاً، تحاول تجسيد الحقيقة دون إفراط أو تفريط.

فقد ذكر العالم الجليل الدكتور أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام» أن التصوف قد تفلسف في أواسط القرن الثالث الهجري على يد المحاسبي ـ كما يزعم أن التصوف الإسلامي تأثر بالفلسفة الهندية واليونانية أيضاً[8] وذلك بناء على ما لاحظه الدكتور أحمد أمين ـ في تراث المحاسبي من آراء عقلية وقضايا كلامية لم يعهدها لدى جل مشايخ القوم السابقين، أو عند من أرخ عنهم. إن

(6) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ط ص472.

(7) الحارث المحاسبي: رسالة المسترشدين ـ حققها وخرج أحاديثها وعلق عليها عبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ سوريا ـ الطبعة الثانية، عام 1384هـ، ص16.

(8) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام ـ لجنة التأليف والتحقيق والنشر ـ القاهرة ـ الطبعة العاشرة ـ ط ص227.

تأثر التصوف الإسلامي بالفلسفة الهندية أو اليونانية، فيه خلاف بين أهل العلم والاختصاص، وله ما يبرره من الأدلة العلمية والاجتهادات العقلية، أما القول بأن المحاسبي هو مفلسف التصوف في القرن الثالث وما في ذلك من معان تشير إلى أن المحاسبي ألبس التصوف ثوباً فلسفياً مصبوغاً بآراء يونانية وأخرى هندية، فهذا ما ينفيه البحث الموضوعي في تراث المحاسبي المخطوط والمنشور بل يؤكد هذا البحث تمسك المحاسبي برأي السلف أقوالاً وأفعالاً، كما يؤكد بعده عن الفلسفة الهندية أو اليونانية[9].

إن الدارس لحياة الحارث والمطالع لسيرته الذاتية يجده سلفياً في ظاهره كما كان سلفياً في باطنه[10] حريصاً على التمسك بآداب الشرع بفهم مستنير ووعي تام بالحكم المكنونة في هذا الشرع الحنيف.

ومما روي عنه في ذلك، قوله «من اجتهد في باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه، ورثه الله تعالى الهداية إليه تعالى»[11].

وقال أيضاً: من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة»[12] كما ورد عنه أنه قال «لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر»[13].

فهذه وغيرها تؤكد تمتع المحاسبي ببصيرة ثاقبة وفهم عميق لآداب شرع

---

(9) انظر: د/ محمد عبد الله الشرقاوي: الصوفية والعقل ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1416هـ 1995م، ص31.

(10) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ـ مقدمة الدكتور حسين القوتلي، ص99.

(11) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية: ص57، ص58.

(12) الاصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ـ مطبعة السعادة القاهرة ـ طبعة 1399هـ ـ 1979م، ج10 ص75.

(13) السلمي: طبقات الصوفية، ص59.

الله، كما تشير إلى إدراكه لجوهرالقضية الإيمانية ودورها في توجيه العقل وترشيده إلى ما يوسع مداركه ويزيده فهماً عن الله تعالى وعن الحياة.

وقد ذكرت معظم كتب الطبقات قصته مع الزهد كما جسدت صدقه في الورع عندما حكت عنه أنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم. فلم يأخذ منها شيئاً، قيل لأن أباه كان يقول بالقدر. أي ينكر عموم القدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئاً وذلك لما صحت عنده الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: ««**لا يتوارث أهل ملتين شيئاً**»[14] وكان المحاسبي فقيراً وفي حاجة إلى دانق من المال كما قال الجنيد: مات أبو الحارث المحاسبي وأن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة، وخلف أبوه مالاً كثيراً وما أخذ منه حبة واحدة[15].

ومن ثم فالمحاسبي لم يفلسف التصوف ولم يدخل عليه الآراء الفلسفية التي أدخلها عليه. فيما بعد ـ الحلاج والسهروردي المقتول وابن عربي وابن سبعين وغيرهم، ولكنه استطاع أن يوظف العقل ـ في جل كتاباته ـ لخدمة الدين وأن يخرج من مكنون الشرع ما يؤكد به حكمة العقل وصحة البرهان في صدق الإيمان بالله تعالى والتمسك بشرعه وإذا كان اتهام المحاسبي بفلسفة التصوف الإسلامي غير صحيح وخال من البراهين العلمية والأدلة العقلية الصحيحة، فإن القول بأنه صاحب مذهب كلامي وزعيم طائفة من المتكلمين هي طائفة الصفاتية، قول غير صحيح أيضاً، ولا يقوم على أدلة علمية صحيحة ولا مقدمات منطقية يقينية.

فقد روى السبكي عن ابن الصلاح أن الحارث المحاسبي كان إمام المسلمين في الفقه والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول من يصنف

---

(14) أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية ـ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ـ د/ محمود بن الشريف ـ مطابع مؤسسة دار الشعب ـ القاهرة ـ طبعة عام 1409هـ 1989م، ص57.

(15) ابن الجوزي: صفة الصفوة ـ تحقيق سعيد اللحام ـ إبراهيم رمضان ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ عام 1409هـ ـ 1989هـ ـ 1989م، ج2 ص240.

فيها، وإليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية[16] كما يذكر الدكتور حسين القوتلي أن الحارث له «مذهب كلامي. بل كان يتزعم طائفة من المتكلمين هي طائفة الصفاتية»[17] وهم الذين خاضوا في ذات الله تعالى وصفاته ولكن البحث الموضوعي في تراث الحارث يؤكد رفضه للفكر الاعتزالي ومحاربته للرافضة والقدرية ومدعي التصوف أيضاً[18].

كما أسهم الخلاف الذي وقع بين الإمام أحمد بن حنبل والحارث على تأكيد هذا القول ولكن يمكن القول بأن المنهج الذي استخدمه الحارث في الرد على المعتزلة والرافضة منهج نقدي وإن علاه النزعة الكلامية والآراء الفلسفية، ولكي يناسب أهل الجدل وعلماء الكلام من المعتزلة والرافضة. ولعل ما يتمتع به المحاسبي من سعة الاطلاع في علم الكلام والقدرة على دحض حجج الخصوم كان من وراء اتهامه بالنزعة الكلامية.

أما خلافه مع الإمام أحمد بن حنبل فهو خلاف في أسلوب الرد على الفرق الكلامية ولم يكن خلافاً في العقيدة أو الهدف. فذلك أمر يتفق فيه الإمامان فإذا كان اعتراض الإمام أحمد على المحاسبي في نشر بدع المعتزلة وخوفه على الأمة من مطالعة الشبهة دون الالتفات إلى الجواب فهذا جائز إذا لم تنتشر الشبهة. أما شبه المعتزلة فقد انتشرت وذيع صيتها وطارت شهرتها ومن ثم فإن الرد عليها في هذه الحال كما يرى الحارث فرض ومطلب شرعي أما موقف المحاسبي في المسائل الكلامية واضح ومعروف تحدث عنه الشهرستاني وغيره ممن كتبوا في الملل والنحل. وهو الراي السلفي[19].

---

(16) انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى: ط ص475.

(17) انظر: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ـ مقدمة الدكتور حسين القوتلي، ص30، ص31.

(18) انظر: الحارث المحاسبي: الرعاية لحقوق الله ـ مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود، ص12، ص13.

(19) انظر السابق: ص12، ص13.

مكانة العقل عند المحاسبي:

ظن بعض الباحثين[20] أن موقف الصوفية من العقل في قضية المعرفة والاستدلال على وجود الله تعالى دليل على استخفافهم بالعقل والتهوين من قدره في أمور الدين والدنيا، وهذا ما ينفيه الفهم الصحيح لحقيقة ما ورد في التراث الصوفي عن كثير من مشايخ القوم فإذا كان إجماع الصوفية ـ كما يرى الكلاباذي ـ على أن الدليل على الله هو الله وحده، لأن العقل عاجز والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله[21]، فهذا لا يعني إنكارهم لدور العقل في الإقرار بالشرع والجحود به جوانب الحياة المختلفة.

فالقوم أرباب أحوال، وأصحاب تجارب روحية ذاتية صادقة، استخلصوا من خلالها أن العقل آلة للعبودية لا للإشراف على الربوبية، لأنه يستطيع التفكير في الكون ولم يستطع التفكير في خالق الكون[22]، كما أيقنوا أنه لا هادي للعبد ولا شارح لقلبه في الحقيقية غير الله ـ تعالى ـ وليس لوجود العقل[23].

ومن ثم قدموا هداية القلب بنور الفيوضات الربانية والتجليات الإلهية، على العقل وعملياته المعرفية، لأن العقل في نظرهم عاجز عن الخوض في هذا المستوى من المعرفة القلبية الخالصة[24]

ولذا يؤكد الدكتور محمد السيد الجليند أنه «من الأمور المتفق عليها بين

---

(20) انظر: د. أحمد محمود صبحي: التصوف: إيجابياته وسلبياته ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ طبعة عام 1984م، ص70 ـ د. محمد عبد الله الشرقاوي: الصوفية والعقل، ص154.

(21) انظر: الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف ـ تحقيق محمود أمين النواوي ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ عام 1412هـ 1992م، ص77.

(22) انظر: الكلاباذي: التعرف المذهب أهل التصوف، ص78.

(23) انظر: الهجويري: كشف المحجوب ـ دراسة وترجمة وتعليق دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ طبعة عام 1395هـ ـ 1975م، ج2، ص510.

(24) د. محمد السيد الجليند: من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة ـ مكتبة الشباب ـ القاهرة ـ طبعة عام 1988 ص129.

الصوفية أن المعرفة ليست عملاً عقلياً، ولا مجال فيها للدليل أو البرهان المنطقي، وبالتالي فإنها ليست اكتساباً يتوصل به المرء بوضع المقدمات واستنباط النتائج، وإنما هي وهب وعطاء من الله تعالى. تنزل على قلب العارف فتنكشف له الأمور على حقيقتها انكشافاً لا مجال فيه لشك أو ارتياب.

والعقل عندهم محجوب عن الخوض في هذا المستوى من المعرفة القلبية الخالصة. أما القلب أو الروح، وأحياناً النفس فهي الأداة التي يركزون عليها كوسائل إدراكية للتعرف على حقائق الأشياء في هذا المستوى من المعرفة، حيث تتلاشى وظيفة العقل وتنمحي آثاره لإدراك حقائق الأشياء جميعها، المحسوس منها وغير المحسوس، حيث يشرق عليه نور الحق فيفيض عليه من الإلهام ما يكشف له عن الأمور، الغائب منها والحاضر على درجة سواء[25].

ويمكن القول بأن ما ورد في تراث المحاسبي في شأن العقل برهان ساطع على تقدير الصوفية للعقل من جانب، وسمو مكانته عند المحاسبي من جانب آخر.

وتبرز مكانة العقل عند الحارث في جعله جوهر الإنسان، ووسيلة الخوف من الله تعالى وباعث الصدق، وعامل الإخلاص، وأداة الفهم عن الله تعالى.

يقول المحاسبي: «لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل وجوهر العقل الصبر»[26]، وحين سئل: بم تحاسب النفس؟ قال: بقيام العقل على حراسة جناية النفس فيفتقد زيادتها من نقصانها. كما يرى أن أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء الوعد الوعيد، ومعرفة أصل الوعد والوعيد عظيم الجزاء، وأصل ذلك الفكرة والعبرة»[27].

---

(25) السابق: ص129.

(26) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص59.

(27) انظر: الأصبهاني: حلية الأولياء ج10 ص76، ص77.

فجعل الفكرة التي تنبعث من العقل والعبرة التي تصدر عنه أصل الطاعة، وأداة التقوى، وأساس الخوف والرجاء، وأصل الوعد والوعيد.

بل يذهب إلى أن درجات أهل التقوى والمراقبة لله تعالى، موقوفة على قدر عقولهم ومعرفتهم بربهم، فحين سئل عن خلال أهل المراقبة قال: «إن المراقبة على ثلاث خلال: على قدر عقل العاقلين ومعرفتهم بربهم يفترقون في ذلك.

فإحدى الثلاث: الخوف من الله، والخلة الثانية الحياء من الله، والخلة الثالثة الحب لله. فأما الخائف فمراقب بشدة حذر من الله تعالى وغلبة فزع، وأما المستحي من الله فمراقب بشدة انكسار وغلبة إخبات، وأما المحب فمراقب بشدة سرور وغلبة نشاط وسخاء نفس مع إشفاق[28] وقيل له: مم يتولد الصدق؟ قال: من المعرفة بأن الله يسمع ويرى، وخوف السؤال عن مثاقيل الذر من إرسال اللفظ وخلف الوعد وتأخير الضمان فالمعرفة أصل للصدق والصدق أصل لسائر أعمال البر فعلى قدر قوة الصدق، يزداد العبد في سائر أعمال البر»[29].

ولم تكن العقلية المعرفية هي مناط العقل وأصل الطاعة وأساس المراقبة، عند المحاسبي فقط، بل تتعدى أكثر من ذلك، حيث تبلغ عنده إلى الحد الذي يوصله إلى الفهم عن الله تعالى.

يقول المحاسبي: «سبع خلال يكمل بها عمل المريد وحكمته: حضور العقل، ونقاء الفطنة، وسعة العمل بغير خلط، وقهر العقل للهوى، وعظم الهم كيف يرضى الرب، والتثبت قبل القول والعمل، وشدة الحذر للآفات التي تشوب الطاعات. وأقل المريدين أدومهم مراقبة مع تعظيم الرقيب[30]. ولعل

(28) السابق: ج10 ص93، ص94.
(29) السابق: ج10، ص88.
(30) السابق: ج10، ص94.

المنهج المتميز الذي جمع فيه المحاسبي بين آداب الشرع وحكمة العقل يقودنا إلى القول بأنه رائد الاتجاه العقلي في التراث الصوفي.

«فلم يندفع خلف شطحات التصوف الهادرة، ولا وراء تيارات العقل الجامحة ولا وراء قيود النص الجامدة... فكان له مذاق متزن متعقل، رزين النظرة يُعنى أولاًوأخيراً بتصحيح آلة المعرفة، وهي العقل والنفس ويؤمن بأن الآلة الخربة لا تنتج إلا نتائج مخرفة، ولا تتسم بالثقة، ولا الصدق في مدلولاتها.

وهو مع كل ذلك عالم، حر الفكر في نطاق الشريعة السمحة، متزن العقل لا يجمح مع هواه، ولا يتعصب لمسلكه ولا برأيه[31].

ومن ثم يمكن القول بأن مكانة العقل عند المحاسبي جعلته يستثمر ملكاته العقلية وقدراته المعرفية في الكشف عن درر الشريعة وجني ثمار الحقيقة والجمع بين روح العاطفة الممثلة في الوجدان الصوفي والسمة العقلية الممثلة في المعرفة العقلية، وإمكانية المزج بين تصوف الحب والمعرفة الإشراقية وبين التأمل العقلي أو بين التصوف الإشراقي والمعرفة العقلية.

«وبصرف النظر عن قيمة المساهمة العقلية في المعرفة الصوفية فإن من المهم أن نعلم أنه ليس من الضروري وجود هذين الطابعين منفصلين بحيث يباح لنا أن نصف نظاماً معيناً بأنه نظام حب خالص، وأن نصف نظاماً آخر بأنه معرفة خالصة.

إن الطابعين قد يوجدان جنباً إلى جنب في نظام صوفي واحد، بل إننا نذهب إلى أنه من العسير التعرف على نظام صوفي تسوده المعرفة من أوله إلى آخره دون أن يكون هناك ما يمثل العاطفة في أسمى صورها[32].

---

(31) الحارث المحاسبي: المسائل في الزهد، تحقيق مصطفى عبد القادر، مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ طبعة 1406هـ 1986م ـ المقدمة، ص9 بتصرف.

(32) د. محمد كمال جعفر: التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ـ دار المعرفة الجامعية ـ القاهرة طبعة 1980م، ص61.

ولذا يعد المحاسبي من السابقين الذين جمعوا في منهجهم الصوفي وتجربتهم الروحية بين العاطفة والعقل، أو بين الوجدان الصوفي والمعرفة العقلية.

ويرى الفيلسوف الإنجليزي «برتراند رسل» أن من الفلاسفة من أمكنه الجمع بين النزعة الصوفية والنزعة العلمية، ورأى في ذلك الجمع أن التوفيق بين النزعتين يعد سمواً فكرياً جعل من أصحابه فلاسفة بالمعنى الصحيح، كما لاحظ أن أعظم الرجال الذين كانوا فلاسفة شعروا بالحاجة إلى كل من العلم والتصوف[33].

بل يذهب «رسل» إلى أن العاطفة الصوفية هي الملهم لأعظم ما يكون للإنسان[34] وإذا كان الجمع بين العاطفة والعقل يزيد الإنسان فهماً عن الله تعالى، ويعينه على توظيف ما يعلمه من آداب الشرع، فإن الصوفية لم يهدروا قيمة العقل في معرفة الله تعالى ولم ينقصوا من مكانته في فهم آداب الشرع وإنما أرادوا له التحقق بالمعرفة عن طريق الإيمان، والعمل في ضوء نور اليقين الذي يشرق على القلب من نور الهداية الربانية والرحمات الإلهية.

«ونستخلص من هذا أنه على الرغم من الاختلاف المنهجي بين الفلسفة بوصفها نظراً عقلياً، وبين التصوف الذي هو تجربة روحية ذوقية قلبية لم توجد قطيعة بينهما، فاتصل بعض الصوفية بالفلسفة أو اقتبسوا بعض أفكارها ونظرياتها وأدخلوا هذا الذي اقتبسوه في بنائهم المذهبي لأفكارهم وإن اكتسبت عندئذ مسحة صوفية قد تخفي أصولها الفلسفية البعيدة.

على أن هذه العلاقة بين التصرف والفلسفة لم تكن علاقة من طرف واحد

---

(33) انظر: د/أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ طبعة عام 1983م، ص4. بتصرف.

(34) السابق: ص4.

يمر التأثير خلالها من الفلسفة إلى التصوف بل إنها كانت علاقة ذات طرفين يمر التأثير خلالهما أيضاً من التصوف إلى الفلسفة[35].

وقد ظهرت مكانة العقل عند الحارث المحاسبي في العديد من مؤلفاته[36] والكثير من آرائه، بل تعد رسالة «مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه» من أبرز الأدلة التي تؤكد احترامه للعقل وتقدمه على غيره من الصوفية وعلماء النفس في صياغة نظرية علمية تسمو بالتحليل النفسي إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً[37].

مائية العقل عند الحارث المحاسبي:

حقق الدكتور حسين القوتلي رسالة المحاسبي بعنوان «مائية العقل ومعناه» ثم جمعها مع رسالة أخرى للمحاسبي تسمى «فهم القرآن» في كتاب واحد تحت عنوان «العقل وفهم القرآن». والمعروف عن أهل اللغة أنهم يطلقون على أصل الشيء وجوهره كلمة «ماهية» وليس مائية» ولكن استخدام المحاسبي لكلمة «مائية» جاء معبراً عن مراده من مفهوم العقل ومعناه لأن العقل عنده لا يوصف بالمائي أو المجانسة للأشياء أو وصف هويتها فإذا استفهمنا عن شيء وقلنا: ما هو؟ أي من أي جنس هو؟! وإن كلمة «ماهية» تعد في الأصل «ما هو» ومع إضافة ياء النسبة، تصبح «ماهوية» ولما دخل عليها التحفيف، قيل: ماهية، ويجوز قلب الهاء همزة فنقول: مائية[38].

فالكلمتان «ماهية ومائية» متقاربتان في المعنى، وإن كان إيثار المحاسبي

---

(35) د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور: في الفلسفة الإسلامية (مقدمات وقضايا) ـ دار الثقافة العربية ـ القاهرة ـ طبعة عام 2000م، ص162، ص163.

(36) انظر: كتابة رسالة المسترشدين ـ العقل وفهم القرآن ـ الوصايا.

(37) انظر: الحارث المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، المقدمة، ص29.

(38) راجع: العقائد النفسية بشرح التفاتازاني ـ مطبعة الكليات الأزهرية ـ طبعة 1332م ـ ص98 ـ وقارن: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص140.

لكلمة «المائية» على «الماهية» يعود إلى تأثره بالفيلسوف المسلم يعقوب بن إسحاق الكندي ـ ت: 252هـ» الذي عرّف الفلسفة بأنها علم الأشياء الأبدية الكلية ـ ماهيتها ومائيتها وعللها بقدر طاقة الإنسان[39] ومن ثم يذهب المحاسبي إلى أن مفهوم العقل هو «نور الغريزة» مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم»[40].

ومعنى «نور الغريزة» أداة المعرفة ـ الفطرية ـ التي يتأتى بها معرفة العلوم وليس منها وعندما سمع الإمام الجويني بهذا المعنى للعقل عند المحاسبي ـ علق على ذلك في كتابه «البرهان» فقال: ماحوّم عليه أحد علمائنا غير الحارث المحاسبي ـ فإنه قال: العقل غريزة يتأتى بها درك العلوم وليس فيها»[41].

وذكر السبكي في طبقاته أن الإمام الجويني ارتضى كلام الحارث هذا، وقال عقبه: إنه صفة إذا ثبتت، يتأتى بها التوصل إلى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات الي هي من مسند النظريات وهو منه بناء على أن العقل ليس بعلم، والمعزو إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري أنه العلم[42].

ويرى الدكتور محمود قاسم أن الحارث المحاسبي اهتدى إلى نظرية سيكولوجية حديثة عندما ذهب إلى أن العلم أداة للمعرفة أو يتأتى بها المعرفة وليس منها[43].

ويأتي اهتمام الحارث بالعقل وعملياته العقلية انطلاقاً من الإدراك الجيد

---

(39) راجع الكندي: الرسائل الفلسفية ـ تحقيق د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ طبعة دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ عام 1950م، ص72 ـ وقارن: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص140، 141.

(40) السكبي: طبقات الشافعية الكبرى، ط ص478.

(41) د/ محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ عام 1380هـ ـ 1960م ص277.

(42) راجع السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ط ص479 ـ د/ محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص277.

(43) انظر: د/ محمود قاسم: دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص277.

للآيات القرآنية التي ذكرت مشتقات «العقل» نحو أربع وثلاثين مرة ولم تعول على ماهية العقل الذي ورد في القرآن مرة واحدة[44].

كما أسهم وعيه المستنير بالسنة المطهرة وما ورد عن الصحابة والتابعين في أحاديث العقل على صياغة نظرية سيكولوجية حديثة تخالف ما عرف عن العقل وماهيته عند الفلاسفة والمتكلمين. فلم يحاول «الخوض في المذاهب الفلسفية التي بحثت في تحديد مفهوم العقل، والتي وصفته بأنه «جوهر» أو أنه «جوهر مجرد» وصنفته في أنواع مختلفة وأطلقت عليه أسماء متعددة كالعقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل.

ومن ثم استطاع المحاسبي أن يؤسس أبعاد نظرية علمية سيكولوجية حديثة في مائية العقل من خلال فهمه العميق وبصيرته الثاقبة للدستور الإسلامي ـ القرآن والسنة ـ إضافة إلى أقوال الصحابة والتابعين.

فقد أكد عن طريق النور الغريزي أن العقل هو أداة للمعرفة كما أنه سبيل للإيمان بالله تعالى.

«فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتحنين من عباده، أقام به على البالغين الحجة، وخاطبهم من قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهى وحض وندب فهو غريزة لا يُعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح، لا يقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله. لا يقدر ـ أحد ـ أن يصفه بجسمية ولا بطول، ولا بعرض، ولا طعم، ولا شم، ولا مجسة، ولا لون ولا يعرف إلا بأفعاله»[45].

فهذا النص يبين وظيفة العقل في الإيمان بالله سبحانه، وتوجيه القلب والجوارح إلى القيام بأوامر ربها والانتهاء بنواهيه.

---

(44) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ـ المقدمة، ص116.

(45) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه ـ تحقيق د. حسين القوتلي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ عام 1403هـ ـ 1983م، ص203، ص204.

كما يظهر حقيقة العقل وجوهره وأنه أقرب إلى الحاسة الخلقية المعنوية منه إلى اللذة الحسية المادية الملموسة.

ومن ثم يكتشف الحارث عن طريق النور الغريزي أن العقل مصدر العمليات المعرفية وأساس الحقيقة الإيمانية لأنه عندما يعرف ذاته فإنما يعني ذلك أن العقل قد وعى أمرين اثنين:

أولهما: أنه شيء مخالف لضده، وهو الحمق والجنون.

وثانيهما: أن هذا الوعي العاقل هو نعمة إلهية أقام بها الله تعالى على البالغين الحجة[46] أي سبب كاف للحساب، والعرض على الله يوم القيامة.

وقد خالف الحارث بهذا القول جماعة من أهل العلم والمتكلمين. فيذهب قوم من المتكلمين إلى أن العقل هو صفوة الروح أي خالص الروح، واحتجوا باللغة، فقالوا: قلب كل شيء خالصه. فمن أجل ذلك سمي العقل لباً وقال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[47] يعني أولي العقول[48].

واحتج المحاسبي على هذا الراي لفقدانه ما يدعمه من الأدلة القرآنية أو الأحاديث النبوية، ولم يجد فيه كتاباً مسطوراً، ولا حديثاً مأثوراً[49].

ويروي الحارث آراء قوم من أهل العلم يقولون بأن العقل معرفة نظمها الله تعالى ووضعها في عباده، يزيد ويتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار[50].

ويعارض المحاسبي هذا الرأي أيضاً، لأنه يرفض كون العقل معرفة، وذلك لأن العقل عنده ليس شيئاً آخر غير العقل نفسه، أي أنه مجرد غريزة، أما

---

(46) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، المقدمة ص148.
(47) سورة الزمر، الآية: 9.
(48) الحارث المحاسبي مائية العقل ومعناه، ص204.
(49) انظر السابق: ص204.
(50) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه: ص205.

المعرفة فهي نتيجة له لأنها عنه تكون[51] ولذا يقول المحاسبي: والذي هو عندنا أنه ـ العقل ـ غريزة، والمعرفة عنه تكون وهو نور وضعه الله طبعاً وغريزة، يبصر به الإنسان ويعبر عن طريقه كما أنه نور في القلب كالنور في العين، وهو البصر.

فإذا كان البصر نوراً في العين، فإن العقل نور في القلب، لأنه غريزة يولد بها العبد، ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة والأسباب الدالة على المعقول[52].

ويبرهن المحاسبي على صحة ما يذهب إليه في مائية العقل فيرى أنه الغريزة التي بها عرف الإنسان فأقر، وعرف فأنكر فإذا كان الإنكار عند الإقرار فعلاً فإنه عند المعرفة فعل أيضاً «فمنه فعل عن طبع يوجبه الطبع كالضرة ـ أي كالضرورة ـ كمعرفة الرجل نفسه، وأباه، وأمه، والسماء، والأرض، وجميع الأشياء التي تشاهد»[53].

ومن هنا يتبين أن العقل عند الحارث نور الغريزة، يعرف ذاته بخاطب من الله سبحانه، فيدرك ذاته، ثم يدرك الأشياء الأخرى.

ولكن ما الحجة التي تكمن في نور الغريزة، ومن أجلها يحاسب الله تعالى عباده على كل ما يقدمونه من خير أو شر؟

يشير المحاسبي إلى أن هذه الحجة حجتان وهما: عيان ظاهر وخبر قاهر.

«فأما الأولى وهي العيان الظاهر فهي كل ما يشاهده الإنسان من بحار وجبال وأنهار، وكائنات وأفلاك، وكلها من آثار صنعته واتصال التدبير الذي يدل على أنه واحد لا شريك له.

---

(51) انظر: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص149.

(52) راجع: الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه: ص204، ص205.

(53) السابق: ص205، 206.

ومن ثم تصبح جميع الأشياء (عينا) يعتبر بها الإنسان، فيجل ويعظم لما يرى ويسمع».

«وأما الثانية، وهي الخبر القاهر، فهي جميع ما أخبر الله به عباده إخباراً قاهراً، أي يسيطر على العقل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك لأن القرآن قدم البراهين القاطعة على إتقان الصنعة وحسن التدبير.

ويعطي الدلائل القاهرة على وحدانية الله ـ تعالى ـ وتفرده بالصنع وكذلك الخلق والإبداع[54] يقول المحاسبي «الحجة حجتان: عيان ظاهر، أو خبر قاهر، والعقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن بالعقل، والعقل هو المستدل، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ومحال كون الفرع مع عدم الأصل، وكون الاستدلال مع عدم الدليل.

فالعيان شاهد يدل على غيب، والخبر يدل على صدق؛ فمن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سُفه»[55].

فهذا النص يبين أن الحجتين اللتين في «العيان الظاهر» و«الخبر القاهر» هما ماهيتا هذا العقل.

«فإذا كان العقل مضمناً بالدليل بالنسبة لدليل العيان الظاهر، فإن ماهية العقل تكمن في هذه المخلوقات التي تمثل مفردات الكون ومنها: البحار والأنهار والأفلاك والأرض والجبال... فماهية العقل الأولي هي هذا الوجود الحسي المطلق الذي يقهر العقل ويسلم به، ولما كان العقل كامناً في هذا العيان الظاهر على هذا النحو فهو متضمن فيه. والتضمن هنا لا يعني الفهم والاحتواء فقط وإنما يعني المساواة والتطابق.

لأن الحارث يقول: «إن العقل مضمن بالدليل، والدليل مضمن

(54) انظر: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص162، ص163.
(55) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص232.

بالعقل»[56] وهذا يعني أن الكون وما فيه من كائنات ومخلوقات متساو مع العقل في إثبات وجود الله وأحد الأدلة القاطعة على إتقان صنعته تعالى.

ولذا يذهب الحارث المحاسبي إلى أن العقل الغريزي الذي وضعه الله تعالى في خلقه هو عقل كوني ويمثل عندَه الماهية الأولى للعقل.

وإذا كان العقل مضمناً بالدليل، والدليل مضمناً بالعقل، فإن الماهية الثانية للعقل تكمن في هذا الخبر القاهر، الذي يتمثل عند المحاسبي في القرآن الكريم لأن آياته العظيمة تحقق للإنسان الإيمان الصادق بالله تعالى، وتقدم البراهين القاطعة والدلائل الساطعة على حسن التدبير الإلهي وإتقان الصنع لجميع الكائنات، وهذا ما يشهد له العقل ويقرُّ به الجنان.

ومعنى ذلك أن القرآن مضمن بالعقل تضامناً نوعياً ويمثل جانباً من أحد الجوانب العديدة التي يتمتع بها القرآن، وهو الجانب العقلي ومن ثم جاء القرآن مخاطباً لأولي الألباب وأولي القلوب. وكذلك أولي العقول والأفكار.

ومن ثم يمكن القول أن ما هية العقل عند الحارث المحاسبي عبارة عن ماهيتين هما: الكون اللانهائي من جهة، والقرآن الكريم من جهة آخرى.

ولكن ما طبيعة العلاقة بين الماهية الأولى والماهية الثانية؟ هل هي علاقة اتصال أم علاقة انفصال؟!

لم يشر المحاسبي عن وجود انفصال بين الماهيتين، ولذا يمكن أن نقول أنهما ماهيتان متلازمتان بالضرورة، لأن الكون اللانهائي والقرآن المنزل من عند الله تعالى يرشدان العقل إلى وحدانية الله وتفرده بالخلق والصنعة، والقرآن أصل، والعقل فرع «ومن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سفه»[57].

فأصبح من الضروري للإنسان الذي ينشد الحق ويريد أن يصل إلى

---

(56) انظر السابق: ص232.

(57) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص232.

الحقيقة. أن يخضع عقله لمعطيات هذا الكون اللانهائي، من حيث هو موجود مشاهد يدل على موجود غير مشاهد، ولذا يقول المحاسبي: «فالعيان شاهد يدل على غيب»[58] كما يخضع عقله لآيات الله تعالى في القرآن، ولما أخبر فيه ووعد وتوعد، ولأن الرسول ﷺ جاء به مصدقاً لما بين يديه، والخبر الذي أتاه من ربه صدق أيضاً، ولذا يقول المحاسبي «فالعيان ـ أي الكون ـ شاهد يدل على غيب، والخبر ـ أي القرآن ـ يدل على صدق»[59].

إذن ما هية العقل عند المحاسبي ليست ماهية واحدة، وإنما ماهيتان متلازمتان بالضرورة، لأن العيان (الكون) فرع، والخبر (القرآن) أصل ولا يجوز للعقل أن يعول على الفرع دون الرجوع إلى الأصل.

وإذا كان كل من القرآن المنزل بالصدق من الله تعالى، والكون اللانهائي، يهديان العقل إلى وحدانية الله تعالى وحسن تدبيره لصنعته، فأي منها أقرب للعقل وأهدي سبيلاً؟! إنه القرآن المجيد الذي يهدي العقول إلى استكشاف أسرار الكون واستنباط الآيات الدالة. على دقة الإتقان، وحسن التدبير، وهذا هو العقل الذي يفهم عن الله تعالى.

ولذلك يقول المحاسبي «اعلم أن ما يصل العبد إليه من الفهم ـ بقدر تقديم عقله وموجود علمه بتقواه لله وطاعته، فمن وهب الله له العقل، وأحياه بالعلم بعد الإيمان، وبصره باليقين عيوب نفسه، فقد نظمت له خصال البر. فاطلب البر في التقوى، وخذ العلم من أهل الخشية»[60].

مستويات العقل عند الحارث المحاسبي:

لم تنته الأبعاد السيكولوجية لمائية العقل عند الحارث المحاسبي عند كونه

(58) السابق: ص232.
(59) السابق: ص232.
(60) الحارث المحاسبي: رسالة المسترشدين، ص93، ص94.

غريزة يولد بها الإنسان ثم تزداد بالمعرفة والأسباب الدالة على المعقول، وإنما امتدت إلى آفاق أخرى. لم يسبقه إليهما أحد من الصوفية[61].

وتتمثل هذه الآفاق في المستويات الإيمانية والمعرفية للعقل عند المحاسبي. فقد قسم مستويات العقل إلى ثلاثة مستويات:

أولاً: عقل الغريزة:

يعد هذا المستوى من العقول بمثابة صفة النطق في الإنسان، وهي صفة فطرية أساسية تميزه عن الجماد والحيوان.

فعقل الغريزة هو حقيقة معنى العقل وجوهره التي توجد في أكثر الناس، واستدلوا عليها بخاطب من ربهم، ومن ثم عرفوه وشهدوا له بالوحدانية، وفرقوا به بين ما ينفعهم وما يضرهم.

يقول المحاسبي: «فأما ما هو في المعنى وفي الحقيقة لا غيره: فهو غريزة وضعها الله سبحانه وتعالى في أكثر خلقه، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية، ولا بحس، ولا ذوق، ولا طعم، وإنما عرفهم الله إياها بالعقل منه.

فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم.

فمن عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه، عرف أن الله تعالى قد من عليه بالعقل الذي سلب منه أهل الجنون وأهل الحيرة،وسلب منه الحمقى، الذين قلت عقولهم»[62].

فالغريزة عند المحاسبي هي النور الإلهي الذي يولد به الإنسان، فيدرك به الهداية ويبعده عن الضلال، ويقربه من الأفعال الرشيدة ويدفع به السفة في القول

---

(61) راجع: د. محمد عبد الله الشرقاوي: الصوفية والعقل، ص175، ص176.

(62) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص201، ص176.

والحمق في الفعل، ولذا صار ـ هذا العقل ـ حجة على الناس جميعاً وقاعدة أساسية لوعد الله ووعيده، والتنعم بجنته أو التعذيب بالنار ولهيبها.

«فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتحنين من عباده، أقام به الحجة على البالغين للحلم والحجة، وآتاهم خاطب من قبل عقولهم، ووعد وتوعد، وأمر ونهي، وحض وندب، فهو غريزة لا يعرف إلا بفعاله في القلب والجوارح، لا يقدر أحد ان يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله»[63].

وهنا تكمن جدوى نظرية الحارث المحاسبي في ماهية العقل، حيث يستدل على العقل بفعاله وبأعماله، ولم يعول كثيراً على ماهيته وكيف يفهم ذاته بذاته... إلى غير ذلك من المسائل الكلامية والآراء الفلسفية التي خاض فيها كثير من الفلاسفة وعلماء الكلام[64] فالمستوى الأول الذي عليه عقل الغريزة يشمل الناس جميعاً ويكون حجة عليهم يوم القيامة لأنه «نور وضعه الله طبعاً وغريزة يُبصَّر به، ويُعبَّر به، نور في القلب كالنور في العين، وهو البصر، فالعقل نور في القلب، والبصر نور في العين»[65].

ومن الآيات الدالة على حجية العقل الغريزي، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[66] وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾[67].

يعني بين الله ما يعقلونه بعقولهم إن تدبروا ذلك، ولكنهم أبوا فقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[68] أي استغنوا بالعمى على الهدى، وقدموا الهوى والشهوات على الحكمة والتفكر، وعطلوا عقولهم بمرادهم فكان

(63) انظر السابق: ص203، ص204.
(64) راجع: د/ محمد عبد الله الشرقاوي: الصوفية والعقل، ص103، ص104.
(65) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص204.
(66) سورة التوبة، الآية: 115.
(67) سورة فصلت، الآية: 17.
(68) سورة فصلت، الآية: 17.

جزاؤهم من الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[69] ولذا يؤكد الحارث المحاسبي أن كل بالغ من الجن والإنس من الذكور والإناث ممن أمره الله تعالى ونهاه، ووعده وتوعده بإرسال النذر، وإنزال الكتب وأثار آيات التدبير، فحجة العقل لازمة له، إذ أنعم الله سبحانه بالعقل عليه ومعرفة البيان»[70] فكل إنسان يملك عقلاً عليه أن يدرك أن الله تعالى قد اختار له الهدى وهيأ له الرشاد كما بين له الضلال وكره إليه العصيان.

«ومع هذا فإنه قد يخص بالتنبية والتوفيق من يشاء من عباده، ويخص بجواره من أحب من خلقه»[71] وعندئذ تكون العناية وتتنزل الرحمات.

ثانياً: عقل البيان:

عقل البيان هو العقل الذي يأتي في المستوى الأعلى والأرقى من مستوى «عقل الغريزة» الذي نفرق به بين الضار والنافع وبين المجنون والرشيد.

وعقل البيان هو عقل الفهم، أما الفهم فهو ظاهرة عقلية وعملية إدراكية» تؤدي إلى إصابة المعنى من ناحية والقدرة على التعبير عن هذا المعنى بشكل ما من أشكال البيان من ناحية أخرى.

وليس الفهم هنا لدى الحارث فهماً سكونياً جامداً، بل هو على وجه الدقة فهم متحرك وحي معاً. فهو متحرك باتجاه الأشياء والظواهر الموجودة في الخارج، ما يتعلق منها بالحس وما يتعلق منها بالروح وكذلك بالدنيا والآخرة.

وهو حي لأنه يتعرض لأشياء موجودة ولكل شيء من هذه الأشياء معنى هو أشبه ما يكون بحياة هذا الشيء نفسه، فإذا أصاب الإنسان هذا المعنى بعقله فقد حقق الفهم وتحقق له البيان»[72]. والفهم عند الحارث هو «لإصابة المعنى،

---

(69) سورة فصلت، الآية: 17.

(70) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص206.

(71) السابق: ص207.

(72) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن ص153 بتصرف.

وهو البيان لكل ما سمع من الدنيا والدين أو مس أو ذاق أو شم فسماه الخلق عقلاً وسموا فاعله عاقلاً»[73].

وقدر ورد هذا المعنى للفهم والبصيرة عند العرب وجوزتهما اللغة ووردا في الكتاب والسنة، ولذا يقول الحارث وأما الاثنتان اللتان جوزتها اللغة في الكتاب والسنة وتراجع أهل المعرفة فيما بينهم بالتسمية فجوزتهما اللغة على حقيقة المعنى بأن سمتها عقلاً، إذ كانا من العقل لا عن غيره فإحداهما الفهم لإصابة المعنى... وثانيهما البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة»[74].

فالفهم مستوى إدراكي يتسع لمعان أعمق من مستوى عقل الغريزة، بل إنه متضمن لمعاني عقل الغريزة ويزيد على ذلك معان أكثر شمولاً.

ويبرهن المحاسبي على صحة ما يذهب إليه بآداب قرآنية تؤكد ذلك، فقد «روى في التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾[75] قيل: اعقل ما أقول لك.

وهذه خصلة يشترك فيها أصحاب عقل الغريزة، من أهل الهدى وأهل الضلالة، من بعض أهل الكتاب لما تقدم عندهم من أهل الدين.

كما يجتمع عليها أهل كل إيمان وضلال في أمور الدنيا خاصة، والمطيع والعاصي، وهو فهم البيان»[76] ويسوق المحاسبي أمثلة أخرى ـ من كتاب الله تعالى ـ يبرهن بها على أن الفهم نشاط عقلي يفيد المعرفة ويضبطها في العقل. ومن هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ

(73) السابق: ص208.
(74) السابق: ص208، ص210.
(75) سورة طه، الآية: 13.
(76) السابق: ص208.

كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[77] وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[78].

وقوله جل شأنه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[79].

فهذه الآيات وأمثالها تبرهن على أن الفهم والبيان يتساويان مع مدلول العقل ويجوز لنا أن نسمي الفهم عقلاً والعقل فهماً «فالفهم أو البيان يسمى عقلاً لأنه من العقل كان. فيقول الرجل: أعقلت ما رأيت أو سمعت؟

فيقول: نعم. يعني أني قد فهمت وتبينت. والعرب إنما سمّت الفهم عقلاً لأن ما فهمته فقد قيدته بعقلك، وضبطه كما البعير قد عُقِل أي إنك قيد قيدت ساقه إلى فخديه، وقالوا: اعتقل لسان فلان، أي استمسك»[80] كما أنه عملية معرفية تصدر عن العقل، ولذا فإنه يرد بمعنى العقل وعنه العقل يكون.

عقل البصيرة:

يشير عقل البصيرة إلى درجة إيمانية كبيرة ـ قد تصل إلى مقام الإحسان ـ وذلك لأن صاحبه، مُعظِّم لأوامر الله تعالى ونواهيه، ومتحقق بالتقوى ومتجمل بالورع ويعود سبب تمتعه بهذه الخصال إلى عظم معرفته بعظيم قدر الله تعالى، وبقدر نعمه وإحسانه وقدر ثوابه وعقابه سبحانه ولذا كان المستوى الإدراكي

(77) سورة البقرة، الآية: 75.
(78) سورة البقرة، الآية: 146.
(79) سورة الأنعام، البية: 114.
(80) انظر: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، 210.

«لعقل البصيرة أرقى من عقل الغريزة وعقل البيان ومن ثم انبثق من هذا العقل الفهم عن الله تعالى».

يقول الحارث المحاسبي عن المستوى الإدراكي الثالث للعقل وهو عقل «البصيرة والمعرفة، بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة، في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى».

فمن ذلك أن تعظم معرفته وبصيرته بعظيم قدر الله تعالى، وبقدر نعمه وإحسانه، وبعظيم قدر ثوابه، وعقابه؛ لينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب.

فإذا كان لله معظماً، كان لله مجلاً هايباً، وإذا كان لله مجلاً هايباً، كان منه مستحياً، وإلى طاعته مسارعاً ، ولساخطه مجانباً»[81].

ولعل حلل الكمال الأخلاقي التي يتزين بها عقل البصيرة تشير إلى أن البصيرة عند المحاسبي ظاهرة عقلية. كما هو الحال عند «عقل الفهم والبيان» إلا أن الظاهرة العقلية التي تتبع البصيرة تفوق قدرة عقل الفهم في النفاذ والتوغل في الأشياء، فإذا كان الفهم الذي يحظى به عقل البيان ـ عند الحارث المحاسبي ـ يمثل ظاهرة عقلية تتناول الأشياء في معانيها، فإن البصيرة عنده هي ظاهرة عقلية أيضاً، ولكنها تتخطى معاني هذه الأشياء الواقعة إلى ما وراءها.

فالبصيرة العقلية هي غريزة النفاذ إلى ما وراء هذه الأشياء لمعرفة قيمتها الروحية من ناحية، وقيمتها الأخلاقية من ناحية أخرى[82].

ويمكن القول أن عقل البصيرة عقل يحظى بدرجة الإحساس في الشق الإيماني، كما يتسم بالتفكير الناقد والإدراك المبدع في الشق المعرفي ومن ثم يعرف صاحبه بالزهد والورع، والصدق في الإقبال على الله تعالى.

---

(81) السابق: ص210.

(82) السابق: ص153 بتصرف.

«فكل زاهد زهده على قدر معرفته، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر إيمانه، فمن استولى على قلبه وهمه علم كشف الآخرة، ونبهه التصديق على القدوم عليها، وتبين في تركها، والموافقة لله في العزوف عنها؛ ترحلت الدنيا عن قلب هذا الموافق»[83].

وعندما تترحل الدنيا عن قلب المؤمن يرى ما لا يراه الناظرون، ويتحسس ما لا يدركه المبصرون، ويتجلى لبصيرته من الأسرار الإلهية والمنح الربانية ما يتعذر الوصول إليه عن طريق الإدراك العقلي أو النور الفطري الذي يتبع عقل البيان وعقل الغريزة، ولذا فاز عقل البصيرة بالفهم عن الله تعالى.

ولكن قبل الحديث عن علاقة عقل البصيرة بالفهم عن الله تعالى، تجدر الإشارة إلى حديث الحارث المحاسبي عن كمال العقل أو العقل الكامل.

وفي البداية يبين المحاسبي أنه لا يوجد عقل كامل عن الله تعالى، لأن العقل عن الله تعالى لا غاية له، لأنه لا غاية لله عز وجل، والإحاطة بحقائق صفاته ولا بعظيم قدر ثوابه ولا عقابه، إذا لم يعاينها.

ولكن قد يقع اسم الكمال على الأغلب في الأسماء في العقل عن الله تعالى، لا العقل بالكمال الذي لا يحتمل الزيادة، ألا تراه عز وجل يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[84] وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[85] فلا أحد يعلم عن الله عز وجل في العلم بنفسه فيعرف عن عظمته تعالى، وكمال صفاته كما يعلم الله عز وجل عن نفسه»[86].

وهذا يشير إلى عظيم أدب المحاسبي في الفهم عن الله تعالى؛ وإدراكه

(83) الأصبهاني: حلية الأولياء، جـ 10، ص86.
(84) سورة طه، الآية: 114.
(85) سورة طه، الآية: 110.
(86) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص220. بتصرف.

الجيد لمائية أو ماهية العقل في الفهم عن الله تعالى، ومراعاة الأدب مع أوامره ونواهيه.

يقول المحاسبي «أكمل العاقلين؛ من أقر بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته»[87] أي حقيقة معرفة الله والكمال في الفهم عنه سبحانه.

ويقول: «استعمل لله عقلك بترك التدبير، واستعن بالله على صرف المقادير»[88].

وقد أخذ كثير من أعلام الصوفية[89] عن المحاسبي فكرة الربط بين كمال المعرفة وعقل الكمال وبين العجز عن إدراك كنه معرفة الله سبحانه[90].

كما نقلوا عنه فقه القلب وحكمة العقل في إسقاط التدبير مع الله تعالى. ولذا كانت مؤلفات الحارث المحاسبي من أهم المصادر التي أخذ عنها أعلام الصوفية وغير الصوفية.

عقل البصيرة وأثره في الفهم عن الله تعالى:

من سمات عقل البصيرة ـ كما ذكرنا أنفاً ـ تعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة، وتعظيم قدر الله في ثوابه وعقابه لينال به النجاة من العقاب، والظفر بالثواب، ومن ثم يرى الحارث المحاسبي أن هذا العقل جدير بأن يفهم عن ربه ويعقل عن مولاه عز وجل ما ورد في الشرع من آراء فقهية وآداب أخلاقية، مليئة بالأسرار الإلهية ومشرفة بالتجليات الربانية التي تستعصي

(87) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص40.

(88) الحارث المحاسبي: رسالة المسترشدين، ص51.

(89) انظر الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص80، ص82 ـ الطوسي: اللمع، ص63 ـ الهجويري: كشف المحجوب ـ جـ 2 ص517.

(90) راجع: ابن عطاء الله السكندري: التنوير في إسقاط التدبير ـ عالم الفكر ـ القاهرة ط 1914هـ/ 1998م ـ ص8، ص29.

على كثير من المستويات العقلية المحجوبة عن الإحسان الإيماني الذي يسكنه الله تعالى قلب من يشاء من عباده.

ولكن ما السمات الإيمانية والخصائص الأخلاقية التي هيأت لعقل البصيرة أن يرث العقل عن ربه، والفهم عند الله تعالى؟

يمكن القول بأن العاقل عن الله تعالى عند الحارث المحاسبي ـ مستبصر بعشر خصال، هي:

الأولى ـ الاعتناء بطلب العلم والرغبة في الفهم:

يرى الحارث أن طلب العلم والرغبة الصادقة في الفهم عن الله تعالى يجلب الهيبة والحياء منه تعالى، ويزيد من الإقبال على طاعته وتجنب مساخطه: والظفر بثوابه والنجاة من عقابه.

فإذا كان العبد «معظماً لما ينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب، غني بطلب العلم، ورغب في الفهم، وكان العقل عن الله عز وجل أكثر همته»[91] فترتب على طلب العلم والحرص على الفهم، تعظيم ما ينال به من عقاب الله تعالى، والظفر بثوابه، ومن ثم خلصت نيته في الإقبال على ربه، وعلت همته في إتمام الفروض والإكثار من النوافل.

الثانية ـ تعظيم قدر الله تعالى، وقدر ثوابه وعقابه:

لم تتوقف همة العاقل عن الله تعالى عند تعظيم ما ينال به النجاة من العذاب. والفوز بالنعيم الأبدي، بل تتعدى إلى تعظيم قدر العقاب، لأنه موقوف على عظيم قدر المعذب وعظم استطاعته، وهو الله المنتقم، شديد البطش والجبروت كما أنه الحليم واسع العطايا، جزيل النعم، لأنه سبحانه كريم

(91) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص210.

رحيم ذو الجلال والإكرام، فإذا عني المؤمن «بطلب العلم» استدل به على عظم قدر المولى، وقدر ثوابه وعقابه.

وإذا استدل على ذلك أبصر، وفهم حقائق البيان، فإذا فهم عقل عظيم قدر الله تعالى، وقدر عقابه وثوابه»[92].

الثالثة ـ الهيبة من الله تعالى والرجاء فيه والشوق إليه سبحانه:

يترتب على عظيم الثواب والعقاب من الله تعالى، عند العاقل عن ربه سبحانه وتعالى شدة الهيبة والخوف منه والرجاء فيه، والاشتياق إلى لقائه تعالى.

لأنه يتذوق حلاوة اليقين الذي نزل قلبه فتجعله يستشعر نعيم الجنان وكأنما يعاين ذلك رأى العين ويعيش من خلال حسه الإيماني أحوال الآخرة، كما هو الحال عند الحارث.

يقول الحارث في ذلك «وإذ عظم ـ العبد ـ قدر ثواب الله وعقابه، هاب الله، وفرق ورجا، ورغب واشتاق، فكأنما يعاين ذلك كرأي العين.

فكان عن الله عاقلاً، وسمي ذلك منه عقلاً. إذا كان بالعقل طلب ذلك وبالعقل فهم ذلك، وبالعقل لزم ذلك، وبالعقل جانب ما يزيله عن ذلك فهذا الذي عقل عن ربه»[93].

ثم يسوق الحارث أمثلة من القرآن الكريم يقارن من خلالها بين الذين يعقلون القرآن والذين لا يعقلون، أو بين الذين يتمتعون بعقل البصيرة، والذين يقفون عند عقل الغريزة الذي لا يرقى إلى الحس الإيماني لكي يفهم عن الله تعالى.

فيقول: «ألم تسمعه ـ عز وجل يقول: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾[94] أي أذن

(92) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص211.
(93) السابق: ص211.
(94) سورة الحاقة، الآية: 12.

عقلت عن الله تعالى، فعقل صاحبها عن الله ما سمعت أذناه، ما قال وأخبر.

فهذا هو العقل، ومن زال عن ذلك ومعه غريزة العقل الذي فرق الله تعالى بها بين العقلاء والمجانين. فهو غير عاقل عن الله عز وجل، وهو عاقل البيان الذي لزمته من أجله الحجة. فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[95] يعني عنه. وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾[96] يعني عقولاً، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[97]. ثم سمي من لم يظفر بثوابه ولم ينج من عقابه جاحداً من أهل الكتاب... لأنه لم يعقل عن الله البيان الذي لزمتهم به الحجة، فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[98] فأخبر أنهم لا يعقلون، يعني عنه ما قال من عظيم قدره المبيَّن عنه ـ تعالى. ثم قال: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾. يعني عقل البيان[99].

كما يسوق مثلاً آخر يقارن فيه بين عقل الغريزة وعقل البصيرة فأشار إلى أن هناك آخرين «لهم عقول الغرائز لا يعقلون البيان والمبين عنه بالفهم له إلا أنهم يسمعون بلغة يعرفونها كلاماً ولكن لا يعقلون معانيه بالفهم له كمشركي العرب. فقال تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[100] فلم يعقلوا ما قال عز وجل لإعجابهم برأيهم ولتقليدهم آباءهم وكبراءهم، وقد كانت لهم عقول غرائز يعقلون بها أمر دنياهم»[101].

---

(95) سورة الحج، الآية: 46.
(96) سورة الأحقاف، الآية: 26.
(97) سورة الأحقاف، الآية: 26.
(98) سورة البقرة، الآية: 75.
(99) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص211، 212 بتصرف.
(100) سورة الفرقان، الآية: 44.
(101) الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص212.

ومن ثم فالذي يحظى بعقل البصيرة هو الذي ينعم بالفهم عن الله تعالى، فيخشى ربه ويرجو ثوابه، ويشتاق إلى لقائه.

الرابعة ـ اليقين بأن الله لا يظلم خلقه وبدأهم بالرحمة قبل العقوبة:

إن العاقل عن الله سبحانه هو الذي يدرك أن الحق تعالى لا يظلم مثقال ذرة، وأنه قد بدأ خلقه بالرحمة قبل العقوبة، وأنه يستر العيوب ويحسن إلى من تبغض إليه، وقريب إلى من تباعد عنه، طويل الحلم بخلقه. «فقد أمن من عرفه كبره وبغيه، وقد عقل عن الله جل وعز حججه على خلقه ـ ووداده ـ إلى خلقه بأنه ليس لهم بظالم، وأنه قد بدأهم بالرحمة قبل العقوبة وقد سبقت منه الأيادي قبل الشكر. طويل الحلم. دائم التأني، جميل الستر، مقيل العثرات، محسن إلى من تبغض إليه، متقرب إلى من تباعد منه»[102].

فنتج عن هذا الفهم حب في القلب وطاعة عند الجوارح، وحرص على الأنس به سبحانه فيعيش العاقل عن ربه في ظلال هذا الود حتى يلقى الله تعالى.

الخامسة ـ تعظيم ثواب الله في جنته والزهد في الدنيا:

يحاول الحارث في هذه الخصلة أن يقرب للعاقل عن الله تعالى، عظم الجزاء الذي ينتظره ويسعد به، فيشير إلى عظيم قدرة الله تعالى في نعيم الجنة وما فيها من ألوان شتى للنعيم وقد فعل ذلك ليهيئ النفوس المؤمنة لمحبة الله والشوق إلى نعيمه من جانب والزهد في متاع الدنيا من جانب آخر، ومن ثم يهون على هذه النفوس آلام الصبر والجزع من الفقر وعدم الرضا بالمقدور من العيش.

يقول الحارث: «وعقل من الله عز وجل ما عظم من قدر ثوابه في جنته

(102) السابق: ص222.

بدوامه، وطيب العيش فيه، وزوال الآفات، والتكدير، والتنغيص عنه، وأنه فوق ما تحب النفوس، ولا يحس أحد أن يخطر بباله كثير مما أعد فيها.

وكفاك بالله تعالى واصفاً عما أعد الله عز وجل في جنته ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل ذلك لأوليائه، إذ يقول عز من قائل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[103] فقد أخبرنا أنه حاز في الكمال والنعيم وقرة العيون، وصف الواصفين ومعرفة العارفين وذكر الذاكرين لجميع النعيم فعظم في قلبه جوار مولاه وما أعد فيه لمن أناب إليه وأطاعه، فشخص إليه بعقله فاتصل ما استودع قلبه من العلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كأنه رأى عينه[104].

وهذه سمة تربوية قدمها المحاسبي لأهل الفهم عن الله تعالى حتى يواصلوا رحلتهم إلى مولاهم باستعلائهم على شهوات الدنيا والطمع في نعيم الآخرة؛ ومن ثم ينبت الزهد في الدنيا دار الفناء، والاستعداد للآخرة دار البقاء «طلباً للفوز بالنعيم الأبدي فلما تحقق العاقل عن الله من زوال الدنيا وفنائها، وبقاء الآخرة ونعيمها» اتصل عقله بمشاهدة ذلك فحن واشتاق، فلما حن واشتاق تعلق قلبه واشتغل، فلما اشتغل بالشوق إلى جوار ربه سلا عن الدنيا»[105].

فالعاقل عن مولاه هو الذي يعظم قدر الله، ويعظم قدر ثوابه في الجنة ونعيمها، فيزهد في الدنيا ويشتاق إلى نعيم الآخرة ذلك الذي يهون على المسلم كل بلاء ينزل به[106].

---

(103) سورة السجدة، الآية: 17.

(104) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص223 بتصرف.

(105) السابق: ص224.

(106) راجع: الحارث المحاسبي ـ التوهم ـ بغير تحقيق ـ طبعة القاهرة ـ بدون تاريخ. ونشرة أ ـ ج1 آربري، ص5؟ ص17.

السادسة ـ تدبر آيات الله وحكمته في صنعته وحسن تقديره:

يرغب الحارث من وراء هذه السمة أن يحقق في قلب المؤمن معاني الصفات الإلهية، ودلائل القدرة الربانية حتى يظل مجلاً لله ومعظماً لذاتها القدسية، ومسبحاً بدلائل حسن تقديره وحكمته في آثار صنعته؛ فيدوم ذكره ويكثر شكره وإجلاله لله تعالى.

فيذكر الحارث أن الذي يفهم عن المولى عز وجل، هو من «عقل عن الله آيته في تدبيره وحكمته في آثار صنعته، ودلائل حسن تقديره، فعلم أنه بقدرة نافذة قدّرها وبحكمة كاملة أتقنها، وبعلم محيط اخترعها، وبسمع نافذ سمع حركاتها، وببصر مدرك لها دبّر لطائف خلقها، وغوامض كوامنها، وما وارثه حجبها وسواترها. فاستدل بذلك أنه الذي لا إله غيره، ولا رب سواه فكأن جميع الأشياء عين يعتبر بها، ويجل ويعظم لما يرى ويسمع من مولاه وسيده، فدام ذكره وزالت عن الله عز وجل غفلته، وعقل عن الله تعالى أنه ما يبلغه غاية العلم به، ولا بلطائف محابه والقرب إليه والفهم لما كلمه به فكان مع سيده اجتهاده، ودوام اشتغاله بربه»[107].

فصار اشتغاله بالله ديدنه، وإقباله على ربه من سوابق همته وفهمه عن مولاه منتهى أمله وغاية علمه «فعقل عن ربه أن أقل قليل المعرفة يورث التعظيم والهيبة، ويبعث على الاجتهاد ويورث الطاعات والشغل عن جميع العباد»[108].

السابعة ـ الخوف من الله والقيام بأمره تعالى:

أراد الحارث المحاسبي بهذه السمة أن يقدم للعاقل عن الله تعالى ما يعينه على قبوله عند ربه والفوز برضاه والبعد عن مساخطه ونواهيه حتى يتسنى له التعرض لجزيل النعم من الله سبحانه، ومنها الفهم عن الله.

---

(107) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص225.

(108) السابق: ص226.

ويسأل المحاسبي نفسه: متى يسمى الرجل عاقلاً عن الله تعالى؟

ويجيب على نفسه: فيقول: إذا كان مؤمناً خائفاً من الله عز وجل.

ويرى أن الدليل على ذلك أن يكون قائماً بأمر الله الذي أوجب عليه القيام به مجانباً لما يكره ونهاه عنه فإذا كان كذلك استحق أن يسمى عاقلاً عن الله ـ تعالى[109] كما يذهب المحاسبي إلى أنه لا يسمى عاقلاً عن الله من يعزم على القيام بسخطه، فأقام على ذلك مصراً غير تايب»[110].

ولم يتوقف الخوف من الله تعالى عند المحاسبي عند قوة اليقين بالوعيد، لأنه قد يكون الإنسان خائفاً، ولا يكون معه اليقين القوي الذي ينال به الرضا والتوكل والمحبة والزهد ومن ثم ذهب إلى أنه من الواجب أن يقترن الخوف من الله تعالى بقوة اليقين والتبصرة بالدين لأنه قد يكون قوي اليقين وليس يحسن البصر بالدين ويكون بصيراً بالدين لا خائفاً ولا قوي اليقين»[111] ولذا لا بد من الجمع بين الخوف وقوة اليقين والتبصرة بالدين.

وكل ذلك يمكن العاقل عن الله تعالى من دوام المراقبة لربه سبحانه والتحقق بثمار هذه المراقبة من أنس ووداد وصدق في الإقبال عليه.

يقول الحارث: من عدم الفهم عن الله تعالى فيما وعظ لم يحسن أن يستجيب وعظ حكيم ومن خرج من سلطان الخوف إلى غرة الأمن اتسمت به الخطايا إلى مواطن الهلكة فكشفت عنه ستر العدالة ونضحت شواهد العزة، فلا يرى جميلاً يرغب فيه ولا قبيحاً يأنف عنه فتنبسط نفسه إلى ري الشهوات ولا يميل إلى لذيذ الطاعات، فيستولي عليه الهوى، فينقص قدره عند سيده ويشين إيمانه، ويضعف يقينه»[112].

---

(109) السابق: ص218.

(110) انظر السابق: / ص218، ص214.

(111) السابق: ص220، ص221.

(112) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج10 ص85.

الثامنة ـ اتهام النفس بأنها بالسوء أمارة وللذنوب مُسَوِّلة:

يبتغي الحارث من وراء هذه الخصلة أن يجعل العاقل عن الله تعالى قواماً على نفسه ومؤدباً لها. متهماً لها بأنها للذنوب مُسَوِّلة حتى لا تميل به عن الغاية التي يسعى إليها العاقل عن ربه، وهي الفوز برضاه والبعد عن نواهيه ومساخطه.

فيرى أنه «عقل عن الله تعالى من وصف نفسه أنها بالسوء أمارة وللذنوب مُسَوِّلة وأنها هي التي جنت عليه ما قد أحصاه ربه عليه ولم يأمن أن يكون قد حل به غضبه.

وأنه لا يكاد يعدل في بعض أحواله أن يتعرض لبعض مساخطه، وأنه قد لزمته عظيم حجة ما خُص به من العلم وما من عليه من المعرفة دون أكثر العوام: فاستكثر قليل طاعتهم واستعظمها مع استصغار كثير الطاعات من نفسه لأنه أعلم بنفسه وبذنوبه وأن الحجة عليه أعظم منها عليهم[113].

وهنا يحاول الحارث أن يبين للعاقل عن ربه حيل النفوس الأمارة وطرقها الملتوية التي تخول للإنسان أن يميل إليها ويسير خلفها، وعندئذ يبوء بسخط ربه والبعد عن مولاه، فيكون قريباً لهواه وللشيطان. «فحق على العاقل عن الله عز وجل إذا أراد نجاة نفسه ألا يغفل التيقظ، ولا يدع التفكر، ولا يغفل عنها، ولا يأمنها، بل يزيل حسن الظن بها، ويسرع إليها بالتهم إذا سارعت إلى طلب النجاة»[114] حتى يتسنى له إدراك كنه من يعصيه وعظم وشدة غضبه وعذابه، فيصبح باليقظة متحلياً وبدوام المراقبة متزيناً وحينئذ يكون قد عقل من عصاه وخالفه فيما أمره به، فعقل قدر عظمة من عصاه وشدة غضبه وشدة عذابه وهول المكث في عقابه إن لم يعف عنه[115].

---

(113) الحارث المحاسبي/ مائية العقل ومعناه، ص229.

(114) الحارث المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح/ ص110.

(115) الحارث المحاسبي: مائية العقل ومعناه، ص229.

التاسعة ـ الاستبصار بالقرآن وتلاوته في الخلوات:

يذهب الحارث المحاسبي في هذه الخصلة إلى ما ينجلي به قلب العاقل عن ربه، ويدوم به صفاؤه ونقاء سريرته وهو الاستبصار بالقرآن الكريم وفهم إشاراته ومعانيه، وذلك في الخلوة، حتى يتهيأ للقلب فهم كلام الله تعالى وعدم الانشغال بالخلق.

فيرى الحارث أن «العاقل عن الله عز وجل بدلائل الكتاب مستبصر، وبحبله عن كل هلكة معتصم، ولربه بتلاوته في الخلوات مناج، لأنه بنجاة نفسه متهم، ففزع إلى فهم كلام الرب جل وعز ليحي به قلبه، وينجو به من عقابه...

فكفى بكتاب الله عز وجل عن غيب الآخرة مخبراً، وببصائره للعوام موضحاً، لأن من فهم عن الله عز وجل، ذاق طعم حلاوته، وخالط فهمه لذة مناجاته، إذ عرف من تحاوره فعقل عن الله عز وجل ما به خاطبه، فاتخذه ملاذاً فسكن إلى الله عز وجل، وأنس به من كل وحشة، فلم يؤثر شيئاً عليه، فكان للمتقين الماضين قلبه في الدنيا خلفاً، وللآخرين المريدين من بعده سلفاً»[116].

فحق للعاقل عن الله تعالى ألا يحرم من خيرات القرآن، ولا يفوته أسراره وتجلياته التي تثمر الأنس بالخالق والوحشة من الخلق، والسكون إلى الله تعالى.

ويأتي حرص المحاسبي على تلاوة القرآن واتخاذه أنيساً في الخلوات، لإدراكه التام أنه «ربيع قلوب المؤمنين، وراحة الراجين، ومستراح المحزونين، لا ينقص نوره لدوام تلاوته، ولا يُدرك غور فهمه، ولا يبلغ له غاية نهاية تاليه أبداً، لأنه كلام الله عز وجل وثناؤه الذي تعلق المتقون بعروته، والملجأ الذي أوى الراهبون إلى كنف رحمته سبحانه»[117].

---

(116) الحارث المحاسبي: كتاب فهم القرآن ومعانيه، تحقيق. د. حسين القوتلي ـ دار الفكر ـ القاهرة الطبعة الثالثة. عام 1402هـ. 1982م، ص271.

(117) السابق: ص273، 274.

العاشرة ـ تدبر معاني القرآن وفهم ما قال الله فيه:

لم يتوقف الحارث عند الحث على تلاوة القرآن والتعرض لنفحاته في الخلوات دون أن يبين للعاقل عن الله السبل التي تمكنه من فهم كلام الله عز وجل والتحقق بمعانيه، ويتساءل: كيف لي بفهم ما قال الله عز وجل في كتابه؟

ثم يجيب نفسه. فيقول: «بأن يعظم عندك قدر ما تنال بفهمه من النجاة وما في الأعراض عن فهمه من الهلكة»[118].

فالقرآن كلام الله تعالى المنزل على قلب رسول ـ ﷺ ليبلغه إلى الناس جميعاً ويعرفون من خلال وحيه ما أنزل من تشريع سماوي ينصلح به حالهم في الدنيا والآخرة ولذا وجب عليهم فهمه وتدبر معانيه.

ويبين الحارث الطريقة التي تؤدي إلى فهم القرآن وتدبر معانيه، وذلك بجمع الفهم حتى لا يكون الفهم متفرقاً في شيء غير طلب الفهم لكلام الله عز وجل.

ويتحقق ذلك عندما: لا تستغل جوارحك بما لا يشتغل به عقلك، وأن تستعمل كل جارحة بما يعينك على الفهم، كنظرك في المصحف واستماعك إلى تلاوتك أو تلاوة غيرك ولا تمنع عقلك من كل فكر ذكر يقوي طلب فهم كلام مولاك، لأنك إذا لم تشغل جوارحك بشيء غير ذلك، ومنع عقلك عن النظر والفكر في غير ذلك، اجتمع همك وحضر، وإذا حضر عقلك زكا ذهنك، وإذا زكا ذهنك قويت على طلب الفهم، واستبان فيه اليقين، وصفا فيه الذكر، وقوى فيه الفكر.

وبذلك مدح المستمعين لتلاوة كتابه للفهم فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾[119] أي قالوا: صه أفلا نسمع عن الله عز وجل؟ مدحهم بأن سكتوا

---

(118) السابق: ص274.

(119) سورة الأحقاق، الآية: 29.

عن الكلام لئلاً يشتغلوا عن فهم ما يتلو نبيه عليه السلام عليهم»[120].

فلو استوعب العاقل عن الله تعالى ما حكاه الحارث عن طريقة فهم كلام الله سبحانه وتدبير معانيه، لأدرك أنه أمام شيخ مجرب وخبير بما يستحضر الذاكرة الإنسانية ويجمع قوى الإدراك في الإنسان لكي يمكنه من الفهم عن الله تعالى.

وهنا نلمح في منهج الحارث في فهم القرآن، صدق إخلاصه في قراءة القرآن أو الاستماع إليه ورغبته الصادقة في الفهم ومراعاة الأدب مع المولى عز وجل أثناء القراءة أو الاستماع «فإذا أقبلت على الله تعالى بصدق نية ورغبة لفهم كتابه، باجتماع هم، متوكلاً عليه أنه هو الذي يفتح لك الفهم، لا على نفسك فيما تطلب ولا بما لزم قلبك من الذكر. لم يخيبك من الفهم والعقل عنه إن شاء الله تعالى»[121].

وخلاصة القول: أن الحارث المحاسب قدم في حديثه عن مائية العقل وأنواعه الثلاثة، وما ينبثق عن عقل البصيرة من فهم عن الله تعالى، ما يجعله أحد الشيوخ الذين يقر لهم أهل العلم والاختصاص بأنهم رواد مذاهب علمية وأصحاب مناهج تربوية، ينهل منها الباحثون في التصوف وعلم النفس والعلوم الأخرى.

كما يعد الحارث صاحب نظرية علمية سيكولوجية بما ذكره عن طبيعة العقل باعتباره أداة للمعرفة والمعرفة عنه تكون ويأخذ بها علماء النفس والعلوم الأخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن ما حكاه الحارث عن العقل وأنواعه كان مرجع أهل العلم من بعده نذكر من هؤلاء:

السري السقطي (ت: 251هـ) وأحمد بن عاصم الأنطاكي (ت: 264هـ) وأبو حفص الحداد (ت: 270هـ) أحد شيوخ الملامتية، وابن مسروق (ت: 298هـ) تلميذ الحارث المحاسبي، ويوسف بن الحارث الرازي (ت: 304هـ)

---

(120) الحارث المحاسبي: كتاب فهم القرآن معانيه، ص314.

(121) السابق: ص324.

فقد تأثر هؤلاء بالحارث المحاسبي في تعريفه للعقل وأنواعه[122].

كما أفاد من شيوخ الصوفية عن الحارث كل من: الحكيم الترمذي (ت: 280هـ) والجنيد (297هـ) وسهل التستري (ت: 386هـ) والغزالي (ت: 505هـ) حيث أخذوا عنه علاقة العقل بالإيمان وصلته بالفهم عن الله تعالى وإسقاط التدبير[123] ولقيت نظرية الحارث عن عقل الغريزة الذي يزيد بالعلم والتجارب رواجاً في الأوساط الكلامية والفلسفية، حيث تبناها قدامة بن جعفر (ت: 337هـ) والإمام الجويني (ت: 478هـ) والإمام أبو حامد الغزالي (ت: 505هـ) وكذلك النسفي (ت: 573هـ) وعضد الدين الأيجي (ت: 756هـ) في مؤلفاتهم وآرائهم الكلامية[124].

كما تبناها بعض أئمة السلفية، مثل ابن الجوزي وابن تيمية، في شروحهم وبعض مؤلفاتهم[125] ولعل كل هذا يؤكد مكانة المحاسبي في الأوساط العلمية وأهمية نظريته عن العقل لدى شيوخ السلف وعلماء الكلام ومشايخ الصوفية، الأمر الذي يستدعى البحث العلمي إلى الاهتمام بتراث هذه الشخصية الموسوعية التي تجمع بين علوم الظاهر وعلوم الباطن، وتحرص على التمسك بآداب الشرع والتحري عن حكمة العقل في الكتاب والسنة.

ومن ثم يمكن القول بأن الحارث المحاسبي أحد رواد الفكر الإسلامي المتميز الذي يهدف إلى تقديم الإسلام والفكر الإسلامي بحجة الفقيه ودليل العالم، وحكمة الفيلسوف ووجدان الصوفي فجمع بذلك بين عقل الإيمان وإيمان العقل، وأكد أن فلاح العقل وزيادة عملياته المعرفية ونشاطاته الإدراكية لم تنبعث ولن تتفجر إلا من ينابيع الإيمان والفهم عن الله تعالى.

---

(122) السابق: ص185، ص186.
(123) راجع: د/ محمد عبد الله الشرقاوي: الصوفية والعقل، ص167 ـ ص170.
(124) راجع: الحارث المحاسبي: العقل وفهم القرآن، ص186، ص187.
(125) انظر: د/ محمد عبد الله الشرقاوي: الصوفية والعقل، ص108، ص109.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- المحاسبي (أبو عبد الله الحارث بن أسد) **التوهم** ـ بغير تحقيق ـ طبعة مصر ـ بلا تاريخ ـ ونشره. أ.ج. آربري.
- **رسالة المسترشدين** ـ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب ـ سوريا ـ الطبعة الثانية ـ عام 1384هـ.
- **الرعاية لحقوق الله** ـ تحقيق د/ عبد الحليم محمود ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ سنة 1990م.
- **العقل وفهم القرآن** ـ تحقيق د/ حسين القوتلي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ سنة 1403هـ ـ 1982م.
- **فهم القرآن ضمن كتاب «العقل وفهم القرآن»** تحقيق د/ حسين القوتلي ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الثانية ـ سنة 1403هـ ـ 1982م.
- **المسائل في الزهد** ـ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ طبعة عام 1406هـ ـ 1986م.
- **المسائل في أعمال القلوب والجوارح** ـ تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ـ مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة ـ طبعة عام 1406هـ ـ 1986.

ثانياً: المراجع

- الأصبهاني: (أبو نعيم أحمد بن عبد الله) **حلية الولياء وطبقات الأصفياء** ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ طبعة سنة 1399هـ ـ 1979م
- د/ أحمد أمين **ضحى الإسلام** ـ طبعة دار النهضة المصرية ـ سنة 1962.
- التفتازاني (د/ أبو الوفا الغنيمي) **مدخل إلى التصوف الإسلامي ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ سنة 1983م**.
- جعفر: (د/ محمد كمال) **التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً** ـ دار المعرفة الجامعية ـ القاهرة ـ طبعة سنة 1980م.
- الجليند (د/ محمد السيد) **من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة** ـ مكتبة الشباب ـ القاهرة ـ طبعة عام 1988م.

- ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج) **صفة الصفوة** ـ ضبطها وكتب هوامشها ـ إبراهيم إمام ـ سعيد اللحام ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1409هـ ـ 1989م.
- ابن أبي الدنيا **العقل وفضله** ـ تحقيق عزت العطار الحسيني ـ القاهرة سنة 1365هـ ـ 1946م.
- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي) **طبقات الشافعية الكبرى** ـ تحقيق مصطفى عبد القادر أحمد عطا ـ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1420هـ ـ 1999م.
- الشرقاوي (د/ محمد عبد الله) **الصوفية والعقل** ـ دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ سنة 1416هـ ـ 1995م.
- صبحي (د/ أحمد محمود) **التصوف. . . إيجابياته وسلبياته** ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ طبعة، عام 1984م.
- الطوسي (أبو نصر عبد الله بن السراج) **اللمع** ـ تحقيق طه عبد الباقي سرور ـ د/ عبد الحليم محمود ـ مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ طبعة عام 1380هـ ـ 1960م.
- قاسم (د/ محمود) **دراسات في الفلسفة الإسلامية** ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة ـ سنة 1972م.
- القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن) **الرسالة القشيرية**تحقيق د/ عبد الحليم محمود ـ د/ محمود الشريف ـ مؤسسة دار الشعب ـ القاهرة ـ طبعة سنة 1409هـ 1989م.
- الكلاباذي (أبو بكر محمد بن إبراهيم) **التعرف لمذهب أهل التصوف** ـ تحقيق محمود أمين النواوي ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ سنة 1412هـ ـ 1992م.
- محمود (د/ عبدالحليم) **قضية التصوف** ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ الطبعة الثالثة ـ عام 1988م.
- مدكور(د/ عبد الحميد عبد المنعم) **في الفلسفة الإسلامية (مقدمات وقضايا)** ـ دار الثقافة العربية ـ القاهرة ـ طبعة عام 2000م.
- الهجويري (أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي) **كشف المحجوب** ـ دراسة وترجمة وتعليق ـ دار إسعاد عبد الهادي قنديل ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ـ عام 1395هـ ـ 1975م.